المقدمة

يعيش العالم اليوم مجموعة من التقلبات والتجاوزات والانتهاكات، وكأننا في أتون كابوس دلفت إليه البشرية بمحض إرادتها عبر العقود والقرون؛ فواقعنا اليوم عبارة عن ترسبات مفاهيمية وسلوكية أشبه ما تكون بالترسبات الجيولوجية المزمنة، ولا انعتاق إلا بالوقوف على جليتها وكيفية تكوينها؛ إذ ما نراه اليوم واقعا ليس إلا ثمرة قد تبلورت من خلال وصول النُّسغ المغذي إليها، عبر جذور وجذوع وفروع، والتعامل مع الثمرة في إهمال للجذور والجذوع والفروع كالتعامل مع النتيجة في إهمال للأسباب.

وإن من أولى علامات الحضور والشهود الحضاريين عند أمة من الأمم قدرتها على فهم واستيعاب ما يحيط بها من أحداث ووقائع، وتبين ما يكمن وراءها من مفاهيم ومعتقدات وقيم ومناهج وأفكار، وكذا قدرتها على بلورة مواقف إزّاء كل ذلك؛ مواقف يتم قياس جدواها بحسب تأثيرها في تأطير السلوك العام وتعبئته لاجتناب مصادر الخلل، وكذا القدرة على صوغ أحلام لها قدرتها التعبوية الموجهة لجهد الإنسان في تناسق مع المكان، واستعمال راشد للزمان، ومن المؤسف أن نرى أن كسب أمتنا في هذه الاتجاهات قد غِيض وانحسر منذ زمن غير قصير، فانفكت عرى العلاقة مع الواقع والكون والوحي، وطفقنا نتعامل مع

obeikandl.com

هذه المصادر الموجهة لكسب الإنسان، تعاملاً تجزيئيًّا واجترايًّا ومقلدًا في بُعد تام عن التكامل بينها.

إن الكون في المنظومة القرآنية عبارة عن كتاب الله المنظور، والوحي هو كتاب الله المسطور، ولكل أبجده الخاص به الذي يعتبر مدخلا للحوار الباني معه، وللقراءات التأسيسية المحررة للفاعلية الكامنة فيه. والذهول عن المعرفة بالأبجدين يمنع من المتح الراشد من معيني هذين الكتابين الربانيين، لكي يحل الاستظهار والتقليد والترداد محل الإبصار والاسترشاد والاستهداء؛ مما يقتضي تجديدا ناجزا لمناهج القراءتين في أفق الجمع بينهما، مصداقا لقوله تعالى في سورة العلق: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۞ خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۞ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ۞ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۞ عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾(العلق:١-٥).

ولئن تطلب إنجاز المدونات الفقهية والأصولية والبيانية الممكنة من الاهتداء في الواقع بآيات الوحي وبصائره كل الجهد الجبار الذي توغل بالمكلفين في دقائق هذا الواقع وتفاصيله وأحكامها، فإن عدم تحيينها يجعلها أشبه بتلك الخرائط في الأقمار الاصطناعية التي لم يتم تحديثها، فهي على ألقها وشموخها وعظيم قيمتها، لن تنفع السائقين في تعقيدات الواقع إذ بُدلت الأزقة غير الأزقة، والدروب غير الدروب، والقناطر غير القناطر؛ اللهم إلا فيما ثبت.. مما يستدعي استنانا بسنة المصطفى صلى الله عليه وسلم جهدا تجديديا مستداما يمكن من اعتبار المستجدات، وإعطائها مواقعها ومقاديرها وأحكامها في تناسق مع المنظومة التشريعية الشاملة، وتجانف عن السقوط في مهاوي التجزيء والتعضية.

ولاشك أن عالمنا أصابته رضوض وجراحات، وسكنته أقراح وأتراح؛

غير أن هذا العالم أيضا انبجست فيه عيون أمل كبيرة، واندهقت فيه مصادر فرح كثيرة، والإنسان إن استعان بالقراءة التكاملية الجامعة بين هاديات الكون الممكنة من الحركة، وهاديات الوحي الممكنة من الوجهة والقبلة، سوف ينعتق ولا شك في واقعية من إكراهات هذا الحاضر، وينطلق نحو آفاق المنشود في استكشاف لمناجم الجمال البلسم، وواحاته في كل من الوحي والكون.

أ.د. أحمد عبادي

الأمين العام للرابطة المحمدية للعلماء

المغرب

obeikandl.com